

عندما تستقل إرادتنا..



رسالة من: محمد مهدي عاكف - المرشد العام للإخوان المسلمين

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على محمد بن عبد الله، النبي الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..

صار لزاماً على أمة الإسلام أن تضع يدها على مواطن الداء فيها، حتى تبدأ أولى خطواتها على طريق العلاج؛ لتنهض من كبوتها، ولعل إيمانها بحتمية النهوض يكون هو الدافع لتحمل شجاعة المواجهة العلّى التي باتت تنخر في جسدها، لتحول الجسد الواحد إلى أعضاء متفرقة بلا ملامح، وتعمل عللها في العضو الواحد فتفسد أنسجته وتتغافر خلاياه.. أليس هذا بربكم هو حال أمتنا؟ دول تتصارع.. وأنظمة تتناحر.. وحكومات تأكل الحقوق وتجمّع على الصدور والخيرات.. وشعوب تمزقها الصراعات والمؤامرات قبل الغارات والتجييرات.

ومن يتمعن في صورة الواقع يجد روحًا غائبةً عن أمتنا تارةً، أو مغيبةً تارةً أخرى.. إنها روح الإرادة الحرة التي تدفع الشعوب للحياة، وليس المقصود اليوم بالحياة أسبابها من مأكولات ومشروبات وتناولات، ولكنّا نقصد هنا الحياة الإنسانية التي ترى الإنسان محور الكون.. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ التَّمَرَاتِ رُزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

دَائِبِينَ وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَاتَّكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلَّومٌ كَفَّارٌ (34) ﴿إِبْرَاهِيمٍ﴾؛ فله سخر الله كل شيء، ليحيا ويدير المفردات من حوله بقرار و اختيار حفظه له الله، حتى في علاقته به جل وعلا حين قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ (الكافرون).

إن الإرادة التي نريد هي تلك النابعة من إيمان حقيقي بقيمة الإنسان الذي كرمه رب و خالقه حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَقَنَاهُمْ مِّنْ الطَّيَّبَاتِ وَفَصَلَنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقَنَا تَقْضِيَّاً (70)﴾ (الإسراء) لتفجر في الإنسان طاقات الفعل المتنوعة؛ ما بين تواصل إنساني.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائلَ لَتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)﴾ (الحجرات)، و اقتحام لكل دروب الأرض.. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلِيلًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النَّشُورُ (15)﴾ (الملك)، و تحصيل لكل علم.. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (9)﴾ (الزمر)، و مقاومة لكل ظلم واستبداد وعدوان و تجبر ﴿وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ قَوْلِنَكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَيِّلٍ (41)﴾ (الشورى).

سلب الإرادة

ولا شك أن المتربيين بأمتنا سعوا عبر مخططات عديدة لسلب شعيبها إرادته عبر شتى الطرق والوسائل الممكنة؛ حتى تستحيل الشعوب مطيةً لكل غاصب يوجه طاقتها في فضاء غير متناهٍ.

ومن ثم فليس بمستغرب أن يتم تخدير شعوب كانت توحّدها راية الإسلام، وتحرّكها صرخة وإسلاماً لتنتفض ملبيةً صرخة مواطنة في دولة الإسلام الواسعة دون أن تفكّر هذه الشعوب في حسب أو نسب أو عرق هذه السيدة!.

وكذا ليس مستغرباً عندما يتم أسر إرادة الشعوب المسلمة أن تجدها غير مبالية؛ بينما يدبني صهيون تعثّب بقواعد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، والوقف الذي أوقفه عمر بن الخطاب لكل المسلمين ليجعل من كل فرد في هذه الأمة أميناً عليه إلى يوم الدين.

وعندما تغير بوصلة الإرادة تختلف الأولويات ليصبح الفرد قبل المجموع، و ساعتها يقل الولاء للوطن، و يتراجع الإحساس بالمسؤولية، و تنمو آفات التسلق والنفاق والابتزاز، وتموت بذور التواصل بين الناس؛ ليينمو على رفاتها كل الطفليات المجتمعية، و تتسلّط على الأمة أسباب التخلف بإرادة مزيفة و موجهة، و يعم الفساد بكل ألوانه وأشكاله، بدءاً من فساد الحكم، و وصولاً إلى فساد العلاقات الإنسانية.. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيُ النَّاسِ لِيُذَيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)﴾ (الروم).

إن شعوبًا مسلوبة الإرادة لا تقدر إلا على الفعل الموجّه الذي يرى بعينها، ومن ثم تكون حركته مرهونةً بمنطق غير واعٍ للحقيقة من الضلال، فتهتفف خلف الطاغوت.. ﴿أَخْرِجُو أَلَّا لُوطٌ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَّاسٌ يَتَظَاهِرُونَ (56)﴾ (النمل)، ولكنها رغم حركتها المسلوبة الإرادة فإن التاريخ لا يغطيها من المسئولية عن عدم الانتفاضة لتحرير إرادتها، ويكون مآلها هو ذات مآل الطغاة.. ﴿وَحَاقَ بِالِّفْرُونَ سُوءُ العَذَابِ (45)﴾ (غافر)، ولا يغطيها الله من ذنب الاستخفاف الناتج من الاستخفاف بعقولها وإرادتها؛ لأن محصلة ذلك هو تراجع الإنسانية كلها.. ﴿فَاسْتَخَفَ قَوْمٌ فَأَطْعَعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54)﴾ (الزخرف).

الاستعمار الجديد

إن استعماراً جديداً صار جاثماً على صدر أمتنا يدرك تماماً أن تطويقه لها هو الضمانة الوحيدة لاستمراره وبقائه ونموه بمقدراتها، وهذا الاستعمار الجديد باتأشدّ خطراً من كل ألوان الاستعمار على مدار التاريخ وشهاداته؛ لأنّه يستهدف إرادتها بأساليب عدّة:

— في إرادتها يشهر الأخ السلاح في وجه أخيه؛ بدعوى مواجهة الإرهاب ليقتل بلا رحمة ولا تفرقة بين مذنب وبريء أو طفل وعجز.

— وبإرادتها تضغط اليد على زر القنابل المتفجرة لتسجّل انتصاراً للمعارض على الحكومي في الوطن الواحد الذي قهر المحتل ولم يقهر روح الفرقة.

— وبإرادتها يتم تقييع صفقات النفط والغاز والمقاولات والسياحة مع العدو؛ بينما الأخ يتسلّل قوته ويبحث في تلال القمامات على ما يستر به عورته!.

— وبإرادتها يتم تجييش الشعوب خلف مبارزة كرة قدم أو مسابقات غنائية لتنتصر على ذاتنا في معارك وهمية تضييف إلى هزائم واقعنا هزيمةً قاسيةً مرّةً.

— وبإرادتها تحول الخلافات المذهبية إلى حروب طاحنة تجرّ الأمة إلى ميادين فرعية، صارفةً إياها عن ميدان فيه العدو الحقيقي يرتع ويهتك ويسرق ويدمى القلوب والأوطان والمقدسات.

— وبإرادتها تشاهد الأمة كلها العدو يحاصر غزة المسلوبة مع فلسطين من بدن الأمة، ومع ذلك لا تتحرك الشوارع ولا تنتفض الإرادة، والأدهى من ذلك أن تشارك العدو في الحصار وتتمدد بالعدة ليشيد أسواره ويحكم حصاره.

لقد استضعفنا أمتنا وتفرقّت وتناحرت وتقاتلت وحُوصرت، وفُجرّت واعتقلت وحوكمت وفُرِضت عليها العقوبات، ودفعت لمن لا يستحق التعبّيات، واستحققت أن تحمل اسم (عالم ثالث) في عالم ليس فيه ثانٍ، كل هذا يوم ارتضت أن تحول إرادتها من الاستقلال إلى التبعية.

التغيير

إن من المطلوب إحداث ثورة في نفوسنا لتستطيع أن تحصل لإرادتها على صك الاستقلال، وساعتها تضمن للإنسان إنسانيته، والإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله عندما رسم صورة للشعب الناهض جعل له صفات على رأسها (إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف).

روح التغيير ليست وحياً ينزل من السماء، ولا مارداً يستحضره السحراء والدجالون، وإنما هي بذرة تبذّرها يد الشعب المتطلع إلى الحرية في أرض من الوعي بالقيمة الإنسانية السامية، ولا تنمو هذه البذرة إلا عندما يحتضنها رحم الإرادة الذي بمخاضه يولد التغيير.. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: من الآية 11).

وأنتم أيها الإخوان..

يا روحًا يسري في بدن الأمة ليحييها ويحرر إرادتها..

ويا أملاً يصارع نجمه سحب الاستبداد والقهر والظلم والعدوان..

ويا جنداً على شفور الحياة ترابطون سعيًا للغد القادم..

إن الآمال المعقودة عليكم كثيرة، وإن الواجبات تصارع الأوقات بعدما صار إيقاع الحياة سريع الخطى ثقيلاً الوطأة، فكونوا على قدر المسؤولية وأعدوا أنفسكم لقدر الأمانة التي لا يحملها إلا من وصفهم رب البرية بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا يَدْلُو تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب). واعلموا أن الإخوان لا يستأثرون بالحق ولا يتعالون به، وإنما هم سائرون في دربه، وجادلون في البحث عنه، يحملونه إلى الناس بشارةً، ويتحمّلون إعراضهم عنه، آملين أن تفتتح لدعوتهم العقول ومن قبلها القلوب.

فلا يحملنّكم اختلاف أولويات الناس مع أولوياتكم على اليأس أو القلق أو القنوط؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولكن درّبوا إرادتكم على الصبر فلا تغيير إلا به، وما من ثابت إلا الحق جلّ في علاه، وتزودوا بمداد الحق؛ أوراداً من كتابه وذكره، والجد في طلب رضاه؛ لتستحيل إرادتكم ربانية التوجّه، وساعتها يقسم الواحد منكم على قلوب الناس فتتحرّك للتغيير وتغيير مستقلةً عن كل تبعية، ومتّحرةً من كل قيد.. ﴿وَيَوْمَئذٍ يَفْرُحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (4) ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (5) وَعْدَ الله لا يُخلِفُ الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (6) (الروم).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والله أكبر والله الحمد.